منهج التعرف على الاسلام


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الآثار الكاملة ـ ١٠ـ

منهج التعرف على الاسلام

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة

الأستاذ عادل كاظم

مراجعة

حسين علي شعيب

دار الأمير

إسم الكتاب : منهج التعرّف على الإسلام

إسم المؤلف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : عادل كاظم

تنضيد وإخراج: زهرين

تصميم الغلاف: بشير محمد

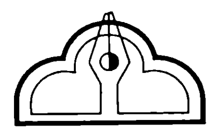
الترقيم الدولي : ISBN 978-9953-494-15-9

الطبعة الأولى : ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦ م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

الناشر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م

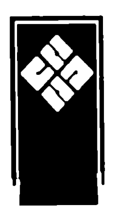
التوزيع في العراق:
دار الباقر ــ النجف الاشرف هــ :07801263579



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت - لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب: 113/5551 الحمرا - بيروت - لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 19395-6516 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا..، أمّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

المحاضرة الأولى

المنهج والتشكُّل الحضاري

تعتبر مسألة المنهج في التاريخ ـ خصوصاً تاريخ العلم ـ ذات أهمية قصوى، إذ أسلوب المعرفة الصحيحة لكشف الحقائق له أهمية أعظم من الفلسفة والعلم والموهبة.

نحن نعلم أن أوروبا، في القرون الوسطى، كانت غارقة في ظلام الجمود والركود مدة ألف سنة، وبعدها تحولت فجأة من مرحلة الركود والجمود إلى حركة اصلاحية شاملة في العلم، والفن، والأدب، والقضايا الإنسانية، والحياة الاجتماعية، وبعدئذ كانت هذه الحركة الإصلاحية، والنهضة الفكرية بالذات منطلقاً لإيجاد المدنية والثقافة الحديثة في العصر الحاضر.

في هذه الحالة يجب أن نسأل أنفسنا: لماذا توقفت أوروبا ألف سنة؟ وكيف تمكنت فجأة من أن تغيِّر اتجاهها؟ وفي مدة قرنين أو ثلاثة، تمكنت أن تكشف الحقائق التي لم

تصل إليها طيلة ألف عام! هذا سؤال خطير وهام، وربما يكون أهم وأعقد سؤال ينبغي أنْ يُجيب عليه العلم.

لا شك أن هناك عوامل متعددة سببت هذا الركود والتوقف في أوروبا في القرون الوسطى، كما أن هناك أسباباً مختلفة أيقظت أوروبا فجأة، ووضعتها على طريق النهضة والرقي والتقدم السريع المدهش.

وفي هذا المجال يجب أن أشير إلى أن العامل الأساسي في تخلّف الفكر الأوروبي، والمدنية والثقافة في أوروبا، في السنوات الألف من القرون الوسطى، كان هو المنهج الأرسطي المعتمد على القياس. وعندما تغيرت هذه النظرة إلى الأشياء والقضايا، تغير معها العلم والعالم والمجتمع، وتغيرت معها الحياة الإنسانية. فالحديث هنا إذن عن الثقافة، والفكر والنهضة العلمية، ولذلك فإن تغيير المنهج والأسلوب كان هو السبب الرئيسي لهذه النهضة الحديثة. وإن كان يبدو بحسب الظاهر أنَّ السبب المباشر لهذا التغيير هو تبديل نظام الاقطاع بالنظام البرجوازي، وكان ذلك بتأثير من انفتاح الغرب المسيحي على الشرق الإسلامي في أيام الحروب الصليبية.

إذن؛ فالمنهج له تأثير كبير في إيجاد التقدم أو الانحطاط، والمنهج العلمي المتبع هو الذي يسبب الركود

والتخلف، أو يفجّر الحركة والتقدم، وليس النبوغ العلمي، فمثلاً في القرن الرابع والخامس قبل الميلاد، نبغ في الفلسفة والعلوم عمالقة لم يكن يلحق بهم نوابغ القرن الثالث والرابع والخامس عشر الميلادي. فلا ريب أن أرسطو كان أعظم نبوغاً من فرانسيس بيكون، وأفلاطون كان أنبغ من روجر بيكون. لكن لماذا أصبح هؤلاء الأفراد، الذين هم أقلّ درجة في النبوغ من أرسطو وأفلاطون، روّاد النهضة العلمية؟ بينما كان أولئك النوابغ أنفسهم سبباً لركود القرون الوسطى، وتوقف ألف سنة فيها. لماذا يصبح نابغة علمية في العالم سبباً للتخلّف والركود، ويصبح رجل متوسط النبوغ سبباً للتقدّم العلمي والنهضة الاجتماعية؟

والجواب هو أن الثاني وجد المنهج الصحيح للتفكير، وفي هذا الطريق يتمكن حتى المتوسط في العلم أن يصل إلى الحقيقة، بينما النابغة العظيم إذا جهل المنهج القويم للتفكير، فإنّه لا يمكن أن يستفاد شيئاً من نبوغه.

لهذا فإنّك تجد في تاريخ الحضارة اليونانية، في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، حشداً من عشرات النوابغ العظام في أثينا، الذين أثّروا في التاريخ البشري إلى يومنا هذا، لكنهم لم يتمكنوا أن يخترعوا آلة واحدة. بينما نجد في أوروبا اليوم رجلاً صناعياً متوسط العلم، بحيث لا يستوعب كلمات أرسطو

وتلامذته، قد اكتشف مئات من الاختراعات. وأحسن مثال على ذلك هو أديسون، حيث لا يعد من الدرجة الثالثة من تلامذة أرسطو. ولكنه عملياً هو أحسن من تلك النبوغات التي كانت تحيط بأرسطو، وتتلمذت على مدرسته طيلة ألفين وأربعمائة سنة. وأكثرهم كشفاً للطبيعة وإسهاماً في توليد الصناعة الحديثة. وقد اخترع أكثر من ألف اختراع صغير وكبير.

فالتفكير الصحيح مثل السير في الطريق تماماً. إذ رجل أعرج يسير ببطء على طريق مبلّط ومستقيم، وعدّاءٍ يختار طريقاً وعراً، منحرفاً ومليئاً بالصخور؛ فمهما ركض سريعاً، فسيصل ذلك الأعرج إلى الهدف أسرع منه.

إنّ مسألة اختيار المنهج الصحيح لكل الاختصاصات العلمية، سواء الأدبية أو الاجتماعية، أو الفنية والسيكولوجية.. أو غيرها.. هي أول مسألة يجب أن تطرح وتناقش. وعلى هذا الأساس فإن أول مهمة للباحث هو انتخاب أفضل منهج من مناهج البحث العلمية. ويجب علينا أن نستفيد من هذه التجربة التاريخية الكبيرة، وباعتبارنا من أتباع دين عظيم، فعلينا أن ندرك مسؤوليتنا، ونعي واجبنا. فالإسلام الذي هو ديننا يجب أن نعرفه بشكل صحيح، وبطريقة منهجية.

وإننا اليوم لا نتمكّن أن نقدس شيئاً لا نعرفه، أو نتعبد

بعقيدة لا نعرفها، وبالخصوص تلك الطبقات المثقفة، فإن مسؤوليتها في معرفة مقدساتها أعظم، وهذه ليست واجباً إسلامياً فقط بل هو واجب علمي وإنساني أيضاً. فقيمة كل إنسان بمقدار معرفته وفهمه لمعتقداته، لأن الاعتقاد وحده ليس فخراً، وإذا كنا نعتقد بشيء لا نعرفه جيداً فلا قيمة في ذلك، بل القيمة تكمن في المعرفة والفهم الدقيق لما نعتقده. ولأننا نعتقد بالإسلام فلا بدّ أن نعرفه جيداً، ولمعرفة الإسلام بشكل صحيح، لا بدّ أن نختار المنهج الصحيح.

المنهج الصحيح لمعرفة الإسلام

والآن هنا سؤال يطرح نفسه: ما هو المنهج الصحيح لمعرفة الإسلام؟ فلمعرفة الحقائق الإسلامية ليس علينا أن نأخذ مثلاً منهجاً من المناهج الأوروبية، مثل المنهج الطبيعي، أو المنهج السيكولوجي، أو المنهج الاجتماعي، ونقلده، وإنما علينا أن نختار منهجاً جديداً نبتكره. وطبعاً فإن المناهج العلمية الأوروبية يجب أن نعرفها، ولكن لا يجب حتماً أن نقلدها. فاليوم كل المناهج العلمية في كل المجالات التخصصية قد تغيرت، وحلت مكانها نظرة جديدة. فالتحقيقات الدينية أيضاً يجب أن تسلك طريقة جديدة وتتبع منهجاً حديثاً.

من البديهي أنه لا توجد لمعرفة الإسلام طريقة واحدة فقط، لأن الإسلام ليس ديناً ذا بعد واحد. فليس الإسلام مثلاً ديناً مبنياً على العرفان والأحاسيس الروحية فقط، أو قائماً على علاقة الإنسان بربه فحسب، بل إن هذا جانب واحد من جوانب الإسلام الواسعة. ولمعرفة هذا الجانب من الإسلام يجب أن نعتمد المنهج الفلسفي، لأن قضية العلاقة بين الإنسان وربه ـ أي مسألة الإيمان بالغيب وبما وراء الطبيعة ـ تُطْرَح في باب الفلسفة، أي في باب التفكير الحرّ ما وراء العلم.

والجانب الثاني من جوانب الدين الإسلامي، هو جانب الحياة الإنسانية، وطريقة المعيشة على الأرض. ولمعرفة هذا الجانب يجب اعتماد المناهج المطروحة في العلوم الإنسانية.

ومن ناحية ثالثة، فإن الإسلام هو دين الحضارة والتمدن، وهو صانع المجتمعات المتحضرة. ولمعرفة هذا البعد الحضاري من الإسلام يجب أن نراجع المناهج المعتمدة في الدراسات الاجتماعية والتاريخية.

إذن لو نظرنا إلى الإسلام من زاوية واحدة، فإننا نرى وجهاً واحداً فقط من وجوه هذا الموشور المتعدد الوجوه، ولو استوعبنا هذا البعد الواحد جيداً، فإنه لا يكفي لمعرفة الإسلام كاملاً.

والقرآن الكريم نفسه خير مثال على ذلك: فهذا الكتاب يحتوي على جوانب متعددة، بحيث أنّ العلماء الكبار لم يحيطوا على طول التاريخ إلاّ ببعض تلك الجوانب، واكتشفوا بعض أبعاده فقط. فجانب من جوانب القرآن هو البعد البلاغي للقرآن، وهو يشتمل على المسائل اللغوية والأدبية والبيانية، وقد أشبع الأدباء وعلماء النحو، والبلاغة والبيان والبديع، ذلك بحثاً ودراسة. والبعد الآخر للقرآن هو البعد الفلسفي، ويشتمل على المسائل الفلسفية والبحوث العقائدية، التي يجب على المتكلمين وعلماء الحكمة والفلسفة اليوم أن يعملوا الفكر فيها. والبعد الثالث للقرآن ـ وهذا البعد لا يزال مجهولاً ـ وهو البعد الإنساني للقرآن، أي البعد الاجتماعي والتاريخي والسيكولوجي، ويشتمل على مسائل ترتبط بعلم الاجتماع وعلم التاريخ وعلم النفس. وبقي هذا البعد مجهولاً لأن هذه العلوم الإنسانية؛ علوم التاريخ والاجتماع والنفس، هي جديدة، وأكثر جدّة من العلوم الطبيعية. فالتاريخ أو علم التاريخ هو أحدث علم وُجِد اليوم، وهو يختلف طبعاً عن المواد التاريخية وكتب التاريخ التي هي من أقدم الكتب التي دونت في كل مجتمع من المجتمعات.

إن المسائل التاريخية المتعلقة بالشعوب السابقة، وبمصير الأمم وأحوالها وعلاقاتها الحضارية، ثم أسباب

سقوطها وانهيار الحضارات السابقة متوفرة ومطروحة في القرآن بشكل بارز خصوصاً في السور الطوال، لذا على كل متخصص في علم التاريخ أن ينظر في ذلك بنظرة علمية. كما يجب على عالم الاجتماع أن يبحث في ذلك بمنهج علم الاجتماع. وأمّا المسائل الكونية والطبيعية، التي تندرج تحت علوم الطبيعة والكائنات الطبيعية، فيجب أن تُبحث بالمنهج الطبيعي.

ولِأنَّ دراستي وتخصصي في علم التاريخ والاجتماع، فإني أُعطي لنفسي الحق في طرح نظرتي الخاصة بهذا الموضوع، وبيان ما توصلت إليه في هذا المجال.

أعرض هنا منهجين للدراسة ينطلقان من زاوية واحدة، وهي الزاوية الاجتماعية والتاريخية التي هي من العلوم الإنسانية.

ولكي يتضح كلامي جيداً، فإني أُشبّه الدين بالإنسان. فلو أردنا أن نتعرف على شخصية كبيرة فهناك طريقتان لذلك، وبواسطة هاتين الطريقتين معاً نحصل على النتيجة المنشودة.

أولاً: أن نبحث في آثاره الفكرية والعلمية والأدبية، وندرس نظرياته وكلماته ومقالاته وكتبه، ونحقق فيها، ذلك لأن التعرف على عقلية الإنسان، وأفكاره ومعتقداته، مقدمة ضرورية لمعرفة ذلك الإنسان.

ثانياً: لا يكفي هذا الأمر وحده لمعرفة الشخصية معرفة كاملة، لأن هناك قضايا وأموراً توجد في حياة الإنسان، ولا تظهر في آثاره أو أقواله، أو تظهر ولكن لا تعرف جيداً. إذن فهناك طريقة ثانية لتعرّفنا بتلك الشخصية جيداً، وهي دراسة حياته الشخصية: من أيّة عائلة أو أسرة هو؟ أين ولد؟ من أية منطقة أو قومية؟ كيف قضى طفولته؟ كيف تربى وترعرع؟ في أية بيئة عاش ونمى؟ وأين قد درس وتعلم؟ من هم أساتذته؟ ما هي الأحداث التي واجهته في حياته؟ ما هي الانتصارات التي حقَّقها، والهزائم التي مني بها؟ و. . . ؟

إذن فالخلاصة أنّ هناك طريقتين أساسيتين لمعرفة أية شخصية، لا بد من الاعتماد عليهما حتماً:

الأولى هي التحقيق في تفكيره وثقافته.

الثانية: هي استعراض حياته وأحواله الشخصية من البداية حتى النهاية.

وهكذا فالدين مثل الشخص أيضاً، فهناك طريقتين لمعرفته.

الأولى: طريقة الآثار والأفكار. . والكتاب الموجود في الدين والذي يدعو الناس إليه يمثل تلك الآثار والأفكار، لأن الكتاب الديني هو الدين مكتوباً بالكلمات. .

وأما الطريقة الثانية: فهي استعراض تاريخ الدين ومسيرته منذ نشأته. . فهو يمثل (بيبلوغرافيا) الدين.

إذن من أجل أن ندرس الإسلام بشكل صحيح ودقيق، ونعرفه بنظرة عصرية توجد طريقتان رئيسيتان:

الطريقة الأولى: دراسة القرآن وهو عبارة عن المباديء والآثار الفكرية والعلمية للإسلام.

الثانية: استعراض المسيرة التاريخية للإسلام، وتتبع التطورات التي حدثت فيه منذ بداية البعثة المحمدية إلى اليوم، وما حدث بينهما.

هذا منهج. . ولكننا نلاحظ مع الأسف في دراساتنا الإسلامية أن الاهتمام بدراسة القرآن، ودراسة التاريخ الإسلامي قليل جداً، والتحقيق فيهما ضئيل ويأتي في الهامش تقريباً. ومع ذلك فمن حسن الحظ أنه يوماً بعد يوم يتوجه المسلمون إلى معرفة القرآن في نصّه، ودراسة التاريخ الإسلامي دراسة تحليلية، وذلك بسبب اليقظة الفكرية التي بدأت تنتشر في المجتمعات الإسلامية. يقول الكاتب فرحات عباس في كتابه «ليل الاستعمار»: «لقد بدأت اليقظة الاجتماعية في دول شمال إفريقيا ـ المغرب والجزائر وتونس ـ منذ ذلك اليوم الذي جاء فيه الشيخ محمد عبده إلى شمال إفريقيا وبدأ

يفسر القرآن للناس. . الأمر الذي لم يكن معروفاً في المعاهد العلمية الدينية إلى ذلك اليوم».

نحن نجد أن هذا الكاتب، وإن لم يكن في اتّجاهه الفكري ملتزماً بالخطّ الإسلامي، إلاّ أنه يعتقد بأنّ بداية اليقظة والتغيير في بلاد شمال إفريقيا، بدأت منذ الوقت الذي اعتبر فيه المسلمون، وعلماء الإسلام، العودة إلى متن القرآن والتحقيق فيه أصلاً، وتركوا التحقيقات الدينية المختلفة في الهوامش والحواشي.

فعلى هذا الأساس فإن دراسة القرآن، باعتباره المتن الكامل للفكر الإسلامي، ومعرفة التاريخ الإسلامي، باعتباره السجل الكامل لأحداث الإسلام في مراحله المختلفة، تؤدّيان إلى معرفة الإسلام بشكل علمي ودقيق.

رسالة المسجد

لو أنّ المسلمين اليوم حوّلوا المسجد إلى مراكز فعّالة للبحث والتحقيق، واعتمدوا على هذين الأصلين الأصيلين: القرآن والتاريخ، في إعداد برنامج التوعية الجماهيرية لأمكنهم ذلك من بناء القاعدة الأساسية لأكبر نهضة إسلامية وفكرية.

وهناك منهج آخر لمعرفة الإسلام. هذا المنهج هو: العلم عن طريق تصنيف القضايا والمقارنة بينها، وهو ما يعرف في علم الاجتماع (التيبولوجي) (Typologie). وفي

سبيل معرفة الإسلام، تمكنت أنا أن أستفيد من هذا المنهج، الذي يستخدم عادة في أوروبا، للتحقيق في بعض العلوم الإنسانية، واستخرجت منهجاً يمكن الاعتماد عليه في معرفة أيّ دين. وهو عبارة عن معرفة الجوانب الخمسة التالية من كل دين، ومقارنتها بالجوانب المقابلة لها في الأديان الأخرى وهي:

١ ـ الإله أو الآلهة في كل دين، أي ذلك الرمز الذي وضع للعبادة عند أتباع هذا الدين.

٢ ـ نبي كل دين، أي الشخص الذي يبلغ رسالة الدين إلى الناس.

٣ ـ كتاب كل دين، أي المنهاج التشريعي الذي يأتي به هذا الدين، ويأمر أتباعه بالعمل به.

٤ ـ كيف ظهر نبي كل دين، ومن هم الذين خاطبهم في دعوته، لأن كلّ نبيّ يأتي ويعرض نبوته بأسلوب، ويخاطب المجتمع بشكل معين، فواحد كان يخاطب عامّة الناس، وآخر كان يخاطب الأشراف والأمراء، وثالث كان يخاطب العلماء والفلاسفة والطبقة الخاصة.

فإننا نلاحظ بأن نبياً ما، يحاول في ظهوره التقرب إلى القوى الحاكمة، ونبي آخر يظهر لمواجهة القوى الموجودة ويثور عليها.

فإننا نلاحظ بأن قسماً ممن أُطْلِقَ عليهم إسم الأنبياء، وكانوا أصحاب أديان «تاريخية»، كانوا يحاولون عند مجيئهم التقرب إلى القوى الحاكمة في المجتمع. ونجد قسماً آخر، وهم الأنبياء الصادقون، كانوا عندما يظهرون يبدأون بمواجهة القوى المتحكمة، ويعلنون الثورة على المتسلطين والجبابرة.

٥ ـ تلامذة وحواريو كل دين، أي النماذج والوجوه التي تُجسِّد الدين وتخرجت من مدرسته الفكرية والروحية، والرجال الذين ربّاهم هذا الدين وقدمهم للمجتمع. فإنّنا عندما نريد أن نعرف جيداً هذا المصنع، أو تلك الأرض الزراعية، فعلينا أن نأخذ عينات من البضائع التي أنتجها هذا المصنع، أو نماذج من محاصيل تلك الأرض الزراعية. وهكذا لو أردنا أن نعرف ديناً ما بشكل جيد، فعلينا أن نطالع وننظر في الأفراد الذين صنعهم هذا الدين، والرجال الذين تخرجوا من مدرسته الفكرية والتربوية.. فهؤلاء يعدون النماذج التي أنتجها الدين، هذا المصنع الإنساني.

إذن.

فعلى ضوء هذا المنهج، ولأجل معرفة الإسلام بشكل جيد يجب استخدام هذه المراحل الخمسة:

المرحلة الأولى

ـ في البدء يجب معرفة الله سبحانه وتعالى. وهناك طرق مختلفة لمعرفة الله، مثل التوجه إلى الكائنات الطبيعية والتفكير فيها، أو المناهج الفلسفية والطرق الإشراقية والعرفانية، أو طريقة التجربة والاستدلال العلمي.. والتحليل الرياضي. أما المنهج الذي أعرضه أنا ـ لمعرفة الله ـ فهو منهج (المقايسة والاستنتاج) وبذلك بأنْ نستقصي الصفات والأسماء والنعوت الخاصة الواردة في الإسلام عن الله عز وجل، مثلاً: هل هو قهار؟ رحيم؟ فوق كلّ شيء؟ هل صفة الرحمانية غالبة على القهارية أم العكس؟ والخلاصة ما هي مجموع صفاته، وأي إله هو؟ ولمعرفة هذه الصفات والخصوصيات يجب مراجعة القرآن، والسنة النبوية، وأحاديث الصفوة من تلاميذ النبي، لأن هذه الصفات قد وردت في القرآن، وأحاديث النبي وتلاميذه بشكل واضح. ثم نقارن بين صفات الله في الإسلام وصفاته في المذاهب الدينية الأخرى مثل. اهورامزدا.. يهوه.. زئوس.. بعل..

المرحلة الثانية

المرحلة الثانية لمعرفة الإسلام ـ هي معرفة كتاب هذا الدين الذي هو القرآن الكريم.

فالنسبة إلى القرآن، يجب أن نعرف أي نوع من أنواع

الكتب هو؟ وما هي المسائل التي يبحث عنها؟ وأكثر تركيزه على أي جانب من الجوانب؟ يتحدث عن الدنيا أكثر أم عن الآخرة؟ ويتطرق إلى المسائل الفردية والأخلاقية أكثر، أم عن المسائل الاجتماعية؟ يتوجه إلى القضايا المادية أكثر، أم إلى القضايا المعنوية؟ يستند على الطبيعة أم على الإنسان؟ وبخلاصة ما هي المفاهيم التي يطرحها، وكيف يطرحها؟ مثلاً في إثبات وجود الله سبحانه وتعالى؛ هل يأمرنا بأن نزكي أنفسنا حتى نتمكن من معرفة الله؟ أم إننا بالمطالعة والبحث في أجزاء الطبيعة، والآفاق والأنفس، يجب أن نصل إلى معرفة الله؟ أم نتبع هذين الطريقين معاً؟ وعلينا أن نقارنه مع سائر الكتب الدينية مثل؛ التوراة والإنجيل، العهدين القديم والجديد، وكتاب بودا. . واوستا.

المرحلة الثالثة

المرحلة الثالثة لمعرفة الإسلام ـ هي أن نعرف الرسول الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ باعتباره نبي هذا الدين. فمعرفة النبي لها أهمية كبيرة بالنسبة إلى أي مؤرخ، لأن الدور الذي كان يملكه نبي الإسلام في التاريخ البشري، لم يكن لأحد مثله. فدور النبي محمد ﷺ في الأحداث التي وقعت في حياته كان عظيماً جداً وفعالاً. وعندما نتحدث عن شخصية

نبي الإسلام فإننا ننظر إلى الجوانب الإنسانية العادية في حياته، كما ننظر إلى أبعاده المعنوية وقدراته المستمدة من ما وراء الطبيعة، أي ندرسه من بعده البشري وبعده النبوي الذي كان يملكه. . . مثلاً في سبيل معرفة أبعاده الإنسانية علينا أن نلاحظ عدة أمور: أسلوب حديثه، وطريقة عمله، وتفكيره، موارد تبسمه وضحكه، قعوده وقيامه، وجلوسه ونومه. ثم ندرس علاقاته مع الآخرين، مع العدو، ومع الأهل والأصدقاء، ونقرأ انتصاراته وهزائمه، ونبحث في معالجته للقضايا الاجتماعية. وهذه الطريقة يمكن أن تعتبر من أهم وأفضل الطرق لمعرفة حقيقة وروح الإسلام الواقعية، أي معرفة نبي الإسلام ومقارنته بأنبياء كموسى وعيسى ومؤسسي الأديان التاريخية مثل: زرادشت وبوذا.

المرحلة الرابعة

المرحلة الرابعة ـ لمعرفة الإسلام ـ هي البحث في كيفية ظهور نبي الإسلام. هل كان ظهوره فجأة وبلا مقدمات أو إرهاصات؟ أم أن العالم كان بانتظار ظهوره؟ وهل كان هو نفسه عارفاً لبعثته من قبل، أو كان يعرف ما هي البعثة؟ أم أنه فجأة أحس بانقلاب داخلي مفاجىء، داخل روحه، وتحول غير عادي في شخصيته وفي طريقة تفكيره وأسلوب حديثه؟ ثم عندما بُعِثَ وواجه مجتمعه بذلك، كيف بدأ المواجهة؟ ومع

أي فئة بدأ علاقته؟ ومع أي فئة بدأ صراعه؟ فالبحث في هذه الأمور يساعدنا أيضاً على معرفة نبي الإسلام، وكيفية ظهوره وبعثته بشكل أفضل.

فلو قارنّا كيفية ظهور نبي الإسلام بكيفية ظهور سائر الأنبياء ـ سواء الصادقين منهم أم المدعين، وسواء كانوا من أخلاف ابراهيم أو غيره ـ مثلاً؛ نقارن بين ظهور النبي محمد وظهور ابراهيم وموسى وعيسى المسيح عليهم السلام، ثم ظهور زرادشت وكونفشيوس وبوذا.. فإننا سنصل إلى نتيجة مهمة جداً وهي: أنَّ أولئك الأنبياء ـ من غير السلسلة الابراهيمية ـ عندما ظهروا وأرادوا أن ينشروا أديانهم، كانوا يتوجهون رأساً إلى الطبقة الحاكمة، ويتقربون إلى البلاط الحاكم. وعن طريق استخدام السلطة ينشرون أفكارهم وأديانهم بين الناس. على العكس من أنبياء الله الصادقين، والسلسلة التي تبدأ بابراهيم حتى نبي الإسلام محمد، فهؤلاء كان ظهورهم حرباً ضد الطبقات الحاكمة، والقوى المتسلطة على الناس. فابراهيم عليه السلام عندما ظهر، حمل فأساً وحطّم الأصنام، وعلّق الفأس في عنق الصنم الأكبر ليعلن مخالفته مع أصنام عصره ونماردة المجتمع. وموسى عليه السلام عندما بُعِث لابساً ثياب الراعي، وبيده عصاه يدخل على فرعون في قصره، ويُعلن الصراع بين عقيدة التوحيد والفرعونية. وعيسى عليه السلام بُعث حتى يقاوم علماء بني إسرائيل،

لأنهم كانوا متحالفين مع جبابرة الروم ويؤيدون الطغاة. أما النبي الأكرم محمد ﷺ فبمجرد بعثته يبدأ الحرب ضد أشراف قريش، ومالكي العبيد، وتجار مكة وسادتها، ومع طبقة الملاك والاقطاعيين في الطائف.

إذن فالمقارنة بين هاتين الصورتين المختلفتين لظهور أنبياء السماء والأرض.. تساعدنا على معرفة اتجاه وحقيقة وأهداف هذه الأديان.

المرحلة الخامسة

وخامس المراحل لمعرفة الإسلام: هي معرفة الوجوه البارزة، والنماذج البشرية التي صنعها هذا الدين أو ذاك، وقدمها للتاريخ والإنسانية. مثلاً: هارون في رسالة موسى، وبولس المقدس في حياة عيسى، وعلي والحسين وأبو ذر في الإسلام، هؤلاء كلهم نماذج تخرجوا من مدرسة هذه الرسالات، فلو درسنا شخصياتهم ومواقفهم لعرفنا قيمة وحقيقة المبدأ الذي كانوا ينتمون إليه وتخرجوا منه. فمعرفة هذه النماذج بصورة علمية ودقيقة ودراسة مواقفهم وأدوارهم، هي مثل التوصل إلى معرفة مصنع ما عن طريق البضائع التي ينتجها، لأن الدين عبارة عن مصنع للإنسانية.

وفي هذه المناسبة نضرب المثل بالحسين عليه السلام كشخصية

بارزة تربَّت وتخرَّجت على يد الإسلام. حتى نعرف بأن من يعتقد بهذا الإله، وبهذا القرآن، وبهذا النبي كيف يمكن أن يكون، وأي إنسان سوف يكون؟ فحياة الحسين معروفة، وشعاره الذي اختاره في الحياة معروف أيضاً، وموقفه من قضايا مجتمعه ومصير الأمة كان معروفاً، كما أن عمله وطريقة تجاوزه عن الذات، كل ذلك مشهور وواضح، وإنه عندما كان هدفه ومبدأه وعقيدته معرَّضة للخطر، كيف ضحّى بكل ما يملك وبكل ما يتعلق به. بهذه الصورة يمكن أن يكون الحسين مثلاً للنموذج الإنساني المشرق. ولكنّ هناك ـ علاوة على معرفة حياة وأفكار الحسين وشخصيته المتألقة ـ طريقاً آخر هو مقارنته بشخصيات أخرى من المجتمع الإنساني، مثل الفيلسوف المعروف؛ أبي علي بن سينا أو الصوفي المشهور حسين بن منصور الحلاج. . . المُسْلِمَيْنِ اللّذين تخرّج أحدهما في الفلسفة، والآخر في التصوف.

فالمقارنة بين هذه الشخصيات الثلاث تعرفنا بالفرق بين كلٍّ من الفلسفة والتصوف، وبين دين الإسلام، ووجوه الاشتراك بين كل من هذه المدارس المختلفة. فابن سينا كان رجلاً فيلسوفاً وعالماً، وكان نابغة عظيمة بحيث يعد مفخرة الفلسفة في تاريخ التمدن الإسلامي، ولكن هذا الإنسان الذي

يملك شخصية علمية وأدبية بارزة، لو نظرنا إلى حياته الاجتماعية، وموقفه الاجتماعي نجد أنه كان إنساناً غير مسؤول تجاه مجتمعه، وحتى أنه كان في خدمة السلطة والمنصب، ولم يكن له حساسية بالنسبة لمجتمعه ومصير أمته. لأنه لم يكن يعتبر نفسه على صلة بمصير الأمة، فوظيفته هي التخصص في الفلسفة، والتحقيق في المسائل العلمية فحسب. وكيفما تنقضي حياته لا فرق عنده، ومن يمنحه المال والجاه فهو بالنسبة له سواء. لأنه يملك عقيدة خاصة. ولا يحمل قضية شعبه في قلبه.

وأما الحلاج ـ الحسين بن منصور ـ فهو صوفي ولهان، قلبه يشتعل ويحترق بنار الشوق والوله، والإنسان الذي يتحرق لا مسؤولية له طبعاً، إذ هو فقط يحترق بداخله ويصرخ. يحترق من أي شيء، من الموجدة بالله، لذلك فهو واضع رأسه بين كفيه يركض في شوارع بغداد ويصيح: حطموا هذا الرأس وأخرجوا هذا اللغز المستعصى علي، خلِّصوني من هذا الحريق الذي يشتعل بداخلي، إني لست شيئاً، أنا الله، يعني (أنا) لست موجوداً. . كل ما هو موجود فهو الله ووجود الله، وأنا ليس لي وجود. فهو على الدوام غارق في الوجد والوله والشوق من ذكر الله، ويعيش في هذا المقام من المعرفة والتصوف.

ولكن تصوروا أن مجتمعاً يتشكل من ٣٥ مليون إنسان مثلاً وفيه ٣٥ مليون حلاج، ألا يتحول إلى دار مجانين؟ يخرج أفراده إلى الشوارع ويصرخون.. ويصيح كل واحد منهم: أقتلوني، خلصوني، بسرعة أنقذوني، أنا لا طاقة لي، أنا لا أملك شيئاً وليس عندي شيء، وليس في جبتي إلا الله.

فإن هذا اللون من الغرق والاحتراق ـ من شدة الوجد الصوفي ـ هو نوع من الجنون المعنوي. فلو أنَّ المجتمع كله أصبح منصوراً الحلاج، أو أصبح ابن سينا فإن مصيره يكون إلى الشقاء والهلاك. ولكن تصوروا لو أن مجتمعاً يوجد فيه (حسين) واحد، أو يكون فيه عدة أفراد كأبي ذر فحينئذ تصبح عندنا حياة وحرية، ويكون عندنا علم وفكر أيضاً، وتصبح عندنا المحبة والقوة والصلابة اللازمة لكسر أعداء الله، وكذلك الحب لله.

المحاضرة الثانية

أدلجة الفعل الاصلاحي

في البدء أتصور من المناسب أن أذكر بعض المواضيع الجانبية، قبل البدء في الموضوع الرئيسي. وهذه المواضيع الجانبية وإن كانت لا تتعلق بالموضوع الرئيسي، ولكن من حيث أنها قضايا أساسية وحيوية، فإن طرحها يعد ضرورياً الآن.

إن أغلب المفكرين أصبحوا في الفترة الأخيرة يتصورون ويفكرون بأن لا فائدة في الكلام، وإنّ الحديث عن «الداء» لا يجدي شيئاً، ويقولون نحن إلى الآن كنا نتكلم فقط، ونتحدث عن الآلام، ولم نعمل شيئاً، ولم ننزل إلى ساحة العمل. فعلى هذا يجب الآن أن نكف عن الكلام، وكل واحد يجب أن يبدأ مرحلة العمل في إصلاح مجتمعه وبلده وأسرته.

وفي نظري أنّ هناك نوعاً من الاشتباه طرأ على الساحة، لأنه ـ في الواقع ـ حتى الآن لم نكن نتكلم أو نتحدث عن آلامنا، ولم نقم بتحليل الألم، أو البحث في جذور المرض بشكل علمي. نحن كنا نئن من الألم فقط. ومن البديهي أنّ الأنين من الألم لا يداوي المرض ولا قيمة له أبداً. نحن وحتى الآن لم نتحدث بأي شكل من الأشكال عن أمراضنا الاجتماعية والنفسية، وقد يشتبه علينا الأمر فنتصور أننا نعرف تلك الأمراض، ويجب أن نبحث الآن عن علاجها، ولكن مع الأسف يجب أن نقول صراحة بأننا حتى الآن لم نكتشف المرض ولم نعرفه.

إن أولئك الأشخاص الذين نزلوا إلى ساحة العمل، ولمسوا المشكلات والانحرافات والمآسي عن طريق احتكاكهم بالمجتمع وتجربتهم للعمل، هؤلاء هم يحسون جيداً أن معرفتنا بالآلام والمفاسد والانحرافات قليلة جداً، وأننا لم نتحدث عن آلامنا وعمّا بنا إلاّ قليلاً. بل حتى حول عقيدتنا وديننا لم نبحث ولم نتحدث بالشكل المطلوب، بل ولم نتحدث أصلاً.

كيف نتمكن أن ندعي بأننا نعرف أمراضنا ومشاكلنا الاجتماعية، وتحدثنا عنها بالمقدار الكافي، والآن قد جاء وقت العمل. في الوقت الذي ندرك فيه بأننا مجتمع إسلامي،

ويجب أن تكون أسس مجتمعنا إسلامية، والحال أننا لم نعرف إلى الآن ديننا وإسلامنا بعد.

فأنا كمعلم عندما يسألني أحد طلابي عن بعض الكتب المؤلفة عن بعض المواضيع، فلا أقدر أن أُجيبه وأُعيِّن له شيئاً، حيث لا توجد عن كثير من المسائل كتب باللغة الفارسية، وكم يبعث هذا على الخجل حقاً.

إن أمتنا منذ قرون تفتخر بانتسابها إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام وبولائها لعلي. فمنذ القرن الأول الهجري عندما فتح الإسلام بلاد إيران، ترك مجتمعنا دينه القديم بسرعة، واختار الإسلام.

ومنذ ذلك اليوم ـ سواء على المستوى الرسمي، أو على صعيد الاحساس الجماهيري والعقيدة الشائعة ـ أتبع نهج علي وأتبع شيعة علي وأختار حكومة علي العادلة. أما اليوم فعندما يسألني الطالب الجامعي عن أي كتاب يطالعه عن علي، أو عن أنصاره وأتباعه الأوائل، الذين صاغوا تاريخ الشيعة في القرن الإسلامي الأول، وبقوا أوفياء له في ظروف الشدة والكفاح.. من هم؟ أَتحيَّر ولا أقدر أن ألبِّي طلبه. نحن نعرف أولئك الرجال، ولكن نعرف أسماءهم فقط.

بالنسبة إلى أمة تنتسب إلى مذهب علي، يكون من

المخجل أن لا يكون عندها كتاب قيم عن شخصية علي، أو أحد أصحاب علي.. أي لم تكتب كتاباً ذا قيمة يشبع حاجة هذا الجيل ويملأ فراغه الفكري.

إنه من المخجل أن يعرفنا (جورج جرداق) المسيحي على الإمام علي، وذلك بعد ١٤ قرناً. و(جودت السحار) من إخواننا السنة يكتب عن (أبي ذر). وسلمان الفارسي الذي يعتبر أول رجل من فارس يتبع الإسلام، ويعتبر مفخرة للإيرانيين والجنس الآري، وهو رجل عظيم ونابغة حيث جاء إلى النبي ـ في مستهل دعوته ـ واتبع دينه وتقرب إليه. وقربه النبي إليه حتى جعله من أهل بيته عندما قال: **سلمان منّا أهل البيت**. فمثل هذا الرجل الذي يعتبر مفخرة من الناحية الوطنية والعلمية والدينية، لم يكتب عنه سوى كاتب فرنسي[1]، وأما في اللغة الفارسية فلم يكتب عنه حتى كتاب من أربع صفحات.

(١) المراد به؛ البروفسور لويس ما سنيون (Massignon) (١٨٨٣م ـ ١٩٦٢م)، من أكبر أساتذة الإسلاميات في جامعة السوربون في فرنسا، ومستشرق لامع، اهتمّ كثيراً بالشرق الإسلامي، تتلمذ على يديه كثير من متنوري الشرق، ويعتبر من أكبر أساتذة شريعتي في السوربون، يُختلف في موضوعيته وحياديته مع استشراق الاستعماري. ترك مؤلفات مهمة في الشؤون الإسلامية، عنى بالصوفية واهتم بأفكار الحلاج، ترجم له شريعتي إبان عودته من فرنسا، كتابه؛ سلمان بك. أي (سلمان الفارسي).

لست أدري كيف نتمكن أن ندعي بأن مرحلة المعرفة والتحدث قد انتهت، وقد جاء الآن وقت العمل، ومع ذلك لا أدعي بأنه ليس الآن وقت العمل، لأنه:

يجب أن يكون الكلام والعمل توأمين، وتكون المعرفة والتطبيق معاً، وهذه هي سنة النبي محمدﷺ، حيث لم يكن يفصل بين الكلام والعمل، ولم يقسِّم الحياة إلى فصلين، مثلاً: الفصل الأول للكلام فقط، والفصل الثاني للعمل فقط. وهذا ادعاء ساذج إذا قلنا أننا تكلمنا كثيراً ويجب أن لا نتكلم بعد.

إننا تأوهنا فقط وصرخنا من الألم دائماً. وأنا أيضاً أعتقد، بأنه يجب علينا أن ندع التأوه والأنين، ونبدأ الحديث عن المرض بطريقة صحيحة وموضوعية. يجب أن يكون المبدأ الذي نعتقد به أساساً لتفكيرنا وعملنا، ويجب أن نعرف علياً ونعرف خصائصه، وأن نعرف أبا ذر وسلمان، وسائر صحابة النبي والإمام علي. ولكن مع الأسف لا يوجد كتاب قيم للمطالعة حول هذه الشخصيات والوجوه الإنسانية المقدسة.. هؤلاء الذين نحترمهم من الجهة الإنسانية بغض النظر عن قيمتهم الدينية.

وإذا وُجِدَ الآن بعض الكتب فهي كلها مترجمة، ونحن

لم نخط سطراً واحداً. ومن الملاحظ في مجتمعنا ـ وبالذات في جامعاتنا الدينية ـ أنّ من يفهم القرآن جيّداً يُعدُّ رجلاً «فاضلاً»، ولا يعدّ «عالماً»، لأن درجة العلماء فوق درجة الفضلاء. أي أن معرفة القرآن ودراسته بدقة وفهم تعتبر فضلاً، ولا تعد علماً، بحيث تكون قيمته ثانوية. والفضلاء هم الذين يفسرون القرآن ويعرفون تاريخ الإسلام والنبي والصحابة، ويمارسون هذا المجال. فهؤلاء يطلق عليهم الفضلاء، أي العلماء من الدرجة الثانية.

بهذا المعنى يجب أن نعتبر النبي والإمام علياً وأبا ذر من هذه الطبقة ـ أي طبقة الفضلاء ـ وليس طبقة علماء الإسلام.

لهذا السبب فإني أعتقد بأنّ أهم عمل وأوجب مسؤولية وألزم وظيفة علينا اليوم، هو أن نتحدث بشكل دقيق وعلمي عما نعاني، ونعرف أمراضنا. لأن الذين بدأوا العمل في مجتمعنا وفي البلاد الإسلامية، وأرادوا إصلاح مجتمعاتهم لم تُثْمِر جهودهم، أو كانت ثمارها قليلة، لأنهم عندما دخلوا إلى مرحلة العمل لم يعرفوا ماذا يصنعون، وطبيعي عندما لا نعرف ماذا نريد، أن لا نعرف أيضاً ماذا نعمل. لهذا فإن أول وظيفة علينا تأديتها هي أن نعرف ديننا ومدرستنا الفكرية الحقّة.

ومع الأسف فإننا ـ بعد قرون طويلة من انتسابنا لهذا

الدين ـ علينا أن نبدأ الآن معرفته لا العمل به.

وكما قلت في الحديث السابق فإن معرفة الإسلام لها طرق عديدة مختلفة: إحدى تلك الطرق هي معرفة الله سبحانه تعالى، ومقارنته بالمعبودات في المذاهب الدينية الأخرى، ومعرفة كتابنا (القرآن)، ومقارنته بالكتب السماوية والدينية الأخرى، ثم معرفة شخصية (نبي الإسلام)، ومقارنته بسائر المصلحين الكبار للبشرية على مدار التاريخ. وهكذا معرفة شخصيات الإسلام البارزة، وخريجي مدرسته الفكرية والروحية، ومقارنتهم بأتباع المذاهب الأخرى وحواريي الأديان الأخرى.

هذه وظيفة كل مفكر إسلامي واع ـ في هذا العصر ـ أن يعرف الإسلام بهذه الطريقة، باعتباره المدرسة الفكرية التي من شأنها أن تُوقِظَ الفرد والأمة، وباعتباره الرسالة الإنسانية التي تقود مستقبل البشرية. وعلى كل واع أن يعتبر هذه المسؤولية وظيفة عينية متعلقة به، وأيّاً كان تخصصه الفكري والعلمي، فعليه أن يلقي نظرة جديدة على الدين وشخصياته العظيمة من خلال تخصّصه. لأن الإسلام له أبعاد مختلفة ومجالات كثيرة يتمكن كل باحث حسب اختصاصه أن يجد جانباً من الجوانب، لكي يتأمل ويدقق فيه.

نحو علم إجتماع إسلامي (التأصيل، الآليات، النتاج)

ولأن دراستي الجامعية كانت في هذا المجال، وهو علم الاجتماع وفلسفة الأديان، لذلك حاولت بدوري أن أدوّن علم اجتماع ديني على أساس الإسلام، وبمصطلحات مقتبسة من نصوص القرآن الكريم والمصادر الإسلامية.

وقد توصلت إلى نتائج طيبة ـ ضمن تحقيقي وتتبعي ـ وأدركت مسائل جديدة لم أتصورها من قبل.

فإحدى تلك المسائل هي ما توصلت إليه من مطالعتي للقرآن والسنة، وهي عبارة عن نظريات علمية في التاريخ وعلم الاجتماع، مُستمدَّة من حياة النبيﷺ وطريقة عمله. وهذا الأمر هو غير تحليل القرآن والآيات القرآنية، أو أحاديث النبي وحياته الاجتماعية والسياسية والأخلاقية. أو بعض الفلسفات والرؤى، على ضوء العلم الحديث. مثلاً نفسر آيات القرآن الكونية على ضوء علم الفيزياء، أو نفهم آياته الاجتماعية والتاريخية على ضوء علم الاجتماع والتاريخ، وهذه مسألة أخرى: وهي أنّ قضايا جديدة في علم التاريخ والاجتماع والعلوم الإنسانية استنبطتها من القرآن. أي أن القرآن أعطاني مبادىء وقوانين جديدة في هذا المجال، بل لقد اكتشفت أطروحة جديدة، ونظرية فلسفية في علم الاجتماع والتاريخ.

وعندما راجعت التاريخ وعلم الاجتماع وحققت فيهما تأكدت عندي تلك النظرية.

هناك بعض المسائل التي وجدتها بالاستعانة بالقرآن في العلوم الإنسانية المعاصرة، والتي لم تكن مطروحة من قبل. إحدى تلك المسائل مسألة (الهجرة)، ففي كتاب (محمد خاتم النبيين) بحثت مسألة الهجرة من الزاوية التاريخية فقط، بمعنى أن الهجرة كانت مهاجرة جماعة من منطقة إلى أخرى. لقد أدركت من لهجة القرآن بالنسبة إلى الهجرة والمهاجرين، وكذلك من حياة النبي ومن نظرة الإسلام إلى ذلك. . أدركت أن الهجرة ـ بخلاف ما يتصوره المسلمون عنها ـ ليست مجرد حادثة تاريخية.

فتصور المسلمين للهجرة، هو؛ أن جماعة من أصحاب النبي، قاموا بأمر من النبي، بالهجرة من مكة إلى الحبشة أو المدينة.

أما الهجرة في التاريخ فهي عبارة عن انتقال الأقوام البدائية، أو شبه المتحضرة من منطقة إلى أخرى على أثر العوامل الطبيعية والجغرافية أو السياسية. بينما في الفكر التاريخي عند المسلمين فهي مجرد حادثة وقعت في حياة النبي والمسلمين. أما أنا ومن خلال مراقبة أسلوب القرآن في التحدث عن الهجرة، فقد أدركت **بأن الهجرة هي قانون فلسفي**

واجتماعي عميق. وبمراجعة التاريخ عرفت أن الهجرة قانون اجتماعي عظيم جداً، وجديد، وليس بهذه البساطة التي يذكرها التاريخ والمؤرخون. بل فلاسفة التاريخ أيضاً لم يفهموا الهجرة ـ بهذه الصورة الدقيقة التي سأعرضها ـ وهي أن الهجرة عامل من عوامل التطور والتمدن على مدى التاريخ. **فمجموعة المدنيات السبع والعشرين** ـ على مدى التاريخ والتي نعرفها إلى الآن ـ كلها وليدة هجرات تمت من قبل، ولا يوجد استثناء واحد لهذه القاعدة. ومن هذه الناحية، فلا توجد قبيلة واحدة كانت بدائية، ثم من دون أن تتحرك وتهاجر من أرضها إلى أرض ثانية، تمكنت صدفة أن تتحضر، وتغيرت ثقافتها وأوجدت ثقافة جديدة متقدمة.

لقد استنبطت هذه المسألة المطروحة في التاريخ وعلم الاجتماع، من خلال تعبيرات القرآن وأوامره المستمرة بالهجرة ـ وهي أوامر عامة لكل المؤمنين ـ فكل الحضارات في العالم سواء آخرها وأحدثها ـ حضارة أمريكا الحديثة ـ أو أقدم المدنيات التي نعرفها وهي الحضارة السومرية، كلها وجدت على أثر الهجرات. أي أن المجتمع البدائي ظل بدائياً طيلة بقائه في أرضه، وبعد أن هاجر إلى أرض ثانية، وأقام فيها تمكن أن يتحضر وتغيرت حالته جذرياً. فعلى هذا فإن كل الحضارات كانت وليدة هجرة المجتمعات البدائية. وهكذا

كثير من هذه المسائل التي أدركتها عن هذا الطريق، أي أن القرآن الكريم والمصادر الإسلامية ساعدتني ـ بقدر ما كان عندي من الرصيد على فهم هذه المسائل المتعلقة بعلم التاريخ والاجتماع ـ بشكل أفضل وأدق وبشكل جديد.

حينئذ اكتشفت هذه الحقيقة، وهي أنه يمكن لنا عن طريق الاصطلاحات القرآنية أن نستخرج كثيراً من المسائل العلمية المطروحة في أحدث العلوم الإنسانية المعاصرة..

العامل الأساسي للتغيير

إن الموضوع الذي أريد أن أطرحه الآن في علم الاجتماع الإسلامي، هو أن أهم مشكلة في علم التاريخ والاجتماع هو معرفة العامل الأساسي للتغيير الاجتماعي والتحول والنهضة في المجتمعات. ما هو العامل الحقيقي الذي يحدث تغييراً مفاجئاً، ويولد التحول في المجتمع، أو يسبب اضمحلال وانحطاط المجتمع؟ ما هو العامل الذي يوجد النهضة والحركة التغييرية، ويدفع المجتمع إلى أن يغير روحه وهدفه وشكله واتجاهه مرة واحدة في مدة قرن، أو قرنين من الزمان، وتتغير علاقاته الفردية والاجتماعية بشكل جذري؟

هذا السؤال كان ولا يزال مثاراً للبحث منذ قرون، وبالخصوص قبل قرن وإلى الآن، وطرح بوضوح ودقة

وباستمرار من قبل المدارس الاجتماعية والتاريخية المختلفة. وكان هذا السؤال يطرح نفسه باستمرار على ساحة البحث والمناقشة: ما هو (الموتور) المحرك للتاريخ، والعامل المؤثر في النهضات والتحولات التي تحدث في المجتمع الإنساني؟

وانقسمت المدارس الاجتماعية واختلفت في الاجابة على هذا السؤال، وكل مدرسة أشارت إلى عامل معين وركزت عليه بشدة. وفي الحقيقة هناك بعض المدارس الفكرية لا تعتقد بالتاريخ أصلاً، فهي تعتبر التاريخ مجموعة من التنقلات الماضية، والتقلبات الغابرة، ولا تعتبر لها أية قيمة. فأصحاب هذه المدرسة لا يعتقدون بوجود قانون اجتماعي، أو عوامل تحكم المجتمع أيضاً. فالفوضوية مثلاً لا تؤمن بفلسفة علم الاجتماع والعلوم الإنسانية وتحمل نظرة سيئة تجاهها، لأنها تؤمن بالفوضى، وتعتبر أن سعادة الإنسان وراحته هي في نفي القوانين الاجتماعية. وهناك نوع من الفوضوية العلمية التي لا تقرّ لفلسفة الاجتماع والعلوم الإنسانية، لأن أصحاب هذه النظرية يعتقدون بأنّ العامل الأساسي هو محض الصدفة، ويقولون أن التغييرات والحركات والتحولات ومراحل الرقي والانحطاط في حياة الشعوب كلها تحدث على أثر الصدفة. مثلاً: فجأة يحمل العرب على الفرس، وصدفة ينهزم الفرس أمام العرب، وبعدها يسلم الإيرانيون، وصدفة يحمل

جنكيزخان على إيران وتضعف إيران أمام الجيش المغولي وتستسلم، ويدخل المغول إلى إيران. . ثم يتأثرون بثقافة وشكل الحياة الإسلامية. . والإيرانية. . ويحدث لديهم مثل هذا التغير الجذري. وهكذا الحرب العالمية الأولى فإنها نشبت بالمصادفة أيضاً، والحرب العالمية الثانية هي الأخرى، حيث كان من الممكن أن لا تحدث. والخلاصة أن هؤلاء يعتبرون الصدفة عاملاً للتغيير والتحول وحتى الحروب.

وهناك جماعة أخرى، وهم الماديون، يؤمنون بالجبرية التاريخية، ويعتقدون أن التاريخ والمجتمع ـ على مدى التاريخ منذ البداية وحتى الآن ـ أشبه شيء بالشجرة. هذه الشجرة كانت بذرة، ثم انفلقت وفتقت التراب وخرجت من الأرض، ثم صار لها جذور وسيقان وغصون وأوراق، ونمت وأثمرت. . كل ذلك حدث حسب قوانين جبرية. وجبراً جاء الشتاء وجفّت أوراقها وغصونها، وفي الربيع جبراً تورق وتزهر، فهي تخضر وتسمق جبراً، وتجف وتصفرّ جبراً.

إنّ هؤلاء القائلين بالحتمية التاريخية، يعتقدون بأن المجتمعات الإنسانية هي الأخرى ـ وطيلة تاريخها ـ كانت تسير وفق قوانين جبرية. . هذه القوانين الجبرية التي تحكم حياة المجتمعات هي مثل القوانين الجبرية الموجودة في

الطبيعة، وجبرية التاريخ مثل جبرية الطبيعة النافذة قوانينها على مدى التاريخ.

وعلى هذا الأساس فإن أفراد المجتمع الإنساني ليس لهم أي دخل في تعيين مصيرهم، أو تغييره، ولا يتمكنون أن يتدخلوا في ذلك، لأن المجتمع عبارة عن كائن من الكائنات الطبيعية، وهو ينمو بواسطة العوامل والقوانين الطبيعية تماماً.

وجماعة ثالثة تقدس أبطال التاريخ والشخصيات الممتازة، مثل جماعة الفاشية والنازية. أو مثل العلماء الكبار أمثال (كارليل) الذي كتب عن حياة نبي الإسلام كتاباً، و(امرسون) وغيرهم. فهؤلاء يعتقدون بأن القوانين مجرد آلة تستخدم، وليس لها دخل في تغيير المجتمع. وكذلك الأفراد العاديون والمتوسطون ـ في المجتمع ـ لا دور لهم في تغيير المجتمع، لأنهم آلة طبيعية بيد من يستخدمهم أيضاً. والعامل الوحيد الذي يقوم بإصلاح المجتمع وتغييره وسوقه إلى الأمام، أو إرجاعه إلى الوراء، هم الشخصيات البارزة فيه فقط.

فـ(امرسون) مثلاً يقول: قدِّموا لي عشرة من الشخصيات الكبيرة، حتى أخبركم عن تاريخ المجتمع البشري قبل أن أقرأه، أنتم عرِّفوني بنبي الإسلام حتى أخبركم عن تاريخ

الإسلام، وصفوا لي حياة نابليون حتى أعرض لكم تاريخ أوروبا الحديث. إنّ مصير المجتمع في نظر هؤلاء هو بيد الشخصيات الاجتماعية الكبيرة التي هي قادة المجتمعات. وعلى هذا فإن سعادة المجتمع وشقاءه ليسا بيد الأفراد العاديين ولا بيد الشعوب، وليسا بيد العوامل والقوانين الطبيعية والاجتماعية الجبرية، وليسا بالصدفة والاتفاق، وإنما كل ذلك بيد الشخصيات والعظماء الذين يظهرون في بعض الأحيان ويغيرون تاريخ مجتمعاتهم، وربما غيروا مصير البشرية كلها[1].

أما (كارليل) فيكتب عن حياة النبي محمد فيقول: إن نبي الإسلام محمداً عندما دعا عشيرته الأقربين كذّبوه كلهم، كان علي حينذاك غلاماً يبلغ عشر سنوات، فنهض وأجاب دعوة النبي وبايعه وصدقه. وهنا يستنتج كارليل هذه المعادلة حسب نظريته وطريقة تفكيره فيقول: «عندما التقت يد علي الصغيرة تلك اليد الكبيرة ـ أي يد محمد ـ تغيرت مسيرة التاريخ».

وهناك في المقابل نظرية أخرى تقوم على أساس أن الناس وكافة الشعب قد يتدخلون مباشرة في تغيير مصيرهم، ولكن ليس هناك فكرة ـ حتى في الديمقراطية القديمة والحديثة في مختلف مراحلها ـ تقول بأن الناس هم العامل الأساسي في تغيير المجتمعات وتطورها. فالمدارس الديمقراطية تعتقد بأن

أحسن أنظمة الحكم هي التي يكون للشعب فيها رأى ودخل، ولكن منذ ديمقراطية «أثينا» وحتى الآن، لم تأت أية نظرية لتقول بأن سواد الناس يشكلون العامل الحقيقي للتغيير الاجتماعي والتحول التاريخي. يعني أن أشد الديمقراطيين من علماء الاجتماع، في نفس الوقت الذي يعتقدون فيه بأن أحسن أشكال الحكم والأنظمة الاجتماعية والسياسية هي التي يكون للشعب فيها حق التدخل والاختيار، وأن يعطي فيها رأيه ويختار بنفسه الحكومة؛ مع ذلك لا يعتبرون الشعب هو العامل الأساسي للتغيير والتحول الاجتماعي، بل هؤلاء أيضاً إما يعتقدون بعامل الجبر الطبيعي والتاريخي، أو يعتقدون بعامل الشخصيات الممتازة والصفوة، أو عامل الصدفة وربما المشيئة الإلهية.

كما أن الممجدين بالشخصيات ينقسمون قسمين:

قسم منهم يعتقد بأن شخصية كبيرة مثل موسى وعيسى وبوذا تظهر وتغيّر المجتمع، هؤلاء يقدسون الشخصيات الممتازة.

وقسم آخر يعتقد بأنه في البداية تظهر شخصية ما، ثم إن جماعة من الصفوة والخواص والنوابغ تلتف حوله، وتشكل جماعة متعاونة. وهذه الجماعة من الصفوة تقود المجتمع في

الطريق الذي تريد، ونحو الهدف الذي تشاء، وهؤلاء نظريتهم تقديس الصفوة الممتازة.

أما في الإسلام والقرآن فلا يوجد مكان لأي من هذه العوامل المطروحة بهذا الشكل. إن أعظم شخصية إنسانية في نظر الإسلام هي شخصية النبي ﷺ. وإذا كان الإسلام يعطي للشخصية هذا الدور باعتباره العامل الرئيسي لتغيير المجتمعات والتاريخ، لكان من اللازم أن يعتبر الأنبياء عليهم السلام ـ وخاصة نبي الإسلام محمداً ﷺ ـ هم عامل التغيير والتحول الاجتماعي ـ ولكن ليس الأمر كذلك. فالقرآن ذكر أوصاف النبي ورسالته والدور الذي يقوم به، وهو أن يقوم بدور المبلغ للرسالة وعليه البلاغ وليس أكثر. فهو مسؤول عن إبلاغ الرسالة، وهو بشير ونذير.

وعندما يتأثر النبي من عدم اهتداء الناس، وعدم قدرته على هدايتهم، فإن الله يبين له، إنك مسؤول فقط عن تبليغ الرسالة، ولست مسؤولاً عن رقي الناس أو انحطاطهم فهم المسؤولون عن ذلك.

تجد في القرآن الكريم أن النبي لم تُعْرَضْ شخصيته كعامل وحيد وأساسي للتغيير الاجتماعي وإحداث التحول التاريخي، بل يُعتبر على أنه مبلِّغ يقوم بتبليغ الرسالة وتوضيح

الحقيقة للناس، وتنتهي رسالته عند هذا الحد ﴿**إنما عليك البلاغ**﴾.

وللناس بعد ذلك أن يتَّبعوا الرسالة، ويختاروا الحقيقة أو لا يفعلوا ذلك: **من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**...

كما لا مكان للصدفة في قاموس هذا الدين.. لأن جميع الأمور بيد الله سبحانه. فالصدفة التي تشير إلى وجود حادثة من دون علة، وبدون هدف في نظام الكون عند أولئك، لا يمكن تصورها لا في الطبيعة ولا في المجتمع الإنساني. وعندما يأتي القرآن على ذكر الشخصيات البارزة في التاريخ، فإنه يذمّهم إن كانوا ظلمة كفرة. وإذا ذكر شخصية صالحة خيّرة، فإنه لا يعتبرها عاملاً ذا تأثير في تغيير مجتمعها.

والحقيقة أن الجماعة التي يخاطبها الدين، ويتوجه إليها كل نبي، تشكل العامل الرئيسي والمؤثر للتغيير الاجتماعي في نظر الإسلام. فعلى هذا الأساس نحن نلاحظ أن المخاطبين في القرآن الكريم هم «الناس»

فالنبي ﷺ مبعوث إلى الناس ويتوجه في خطابه إلى الناس، ويجيب على أسئلة الناس، وعامل التغيير والتحول والرقي أو الانحطاط هم الناس، **كما أن مسؤولية المجتمع والتاريخ تقع على عاتق الناس**.

كلمة «الناس» كلمة قيمة وعظيمة جداً، ولا تقابلها في القيمة كلمة أخرى. . . وليس لها مرادف آخر، والكلمة الوحيدة التي تشبهها في الوزن واللفظ هي كلمة «ماس= masse» وهي أي «masse» ـ في علم الاجتماع ـ عبارة عن عامة الشعب بدون ملاحظة مميزاتهم وخصوصياتهم الطبقية، أو الفروق الاجتماعية التي تخرجهم عن عموم الجماعة الإنسانية.

ولفظة (الناس) تشتمل على هذا المعنى بالضبط، وهو عموم النوع الإنساني بدون إضافة معنى آخر، بينما كلمة الإنسان أو البشر وما يرادفها تعطي نفس المعنى، ولكن بإضافة صفة أخلاقية أو اعتبار معين. . (مثلاً يقال البشر مقابل الحيوان أو الإنسان مقابل الحيوان، ثم يقسم إلى إنسان مؤمن وتقي وغير ذلك).

انطلاقاً من هذا فإننا نستنتج أن الإسلام هو أول مدرسة اجتماعية تعتبر المصدر الحقيقي، والعامل الأساسي، والمسؤول المباشر عن تغيير المجتمع والتاريخ، ليست الشخصيات المختارة، كما يقول (نيتشه) وليس الأشراف والأرستقراطيون، كما يقول أفلاطون) وليس العظماء والقادة، كما يقول (كارليل وامرسون) وليس أصحاب الدم الطاهر، كما

يقول (الكسيس كارل) وليس المثقفون أو رجال الدين، بل عامة الناس.

وتبرز أهمية هذه الحقيقة أكثر عندما نقارنها بالنظريات الأخرى، والمدارس الفكرية المشابهة للإسلام. فإلى من تتجه تلك المدارس في خطابها؟ قسم منها يخاطب الطبقة المتعلمة والمثقفة والمفكرة، والقسم الآخر يخاطب الطبقات الممتازة في المجتمع، وبعضها تتحدث مع العنصر المتفوق، وبعضها تتحدث مع «سوبرمان»، وهناك مدارس اجتماعية تهتم بطبقة خاصة من المجتمع كالبروليتاريا أو البرجوازية.

أما في الإسلام، فلا يوجد فيه أي مقياس من هذه الميزات والاعتبارات، وإنما العامل الرئيسي في تغيير المجتمع هم كافة الناس بدون أي امتياز طبقي، أو تفرقة عنصرية، أو أية خصوصية أخرى.

وهنا مسألة ثانية يمكن استنتاجها من القرآن الكريم، وهي أنه في الوقت الذي يكون (الناس) هم المخاطبون بالقرآن، وهم مصدر التغيير والتحولات الاجتماعية ويتحملون المسؤولية. إلاّ أن العوامل الأخرى ـ أي عامل الشخصية والصدفة والسنن ـ لها نصيب من التأثير في المجتمع أيضاً، وعرضت كعوامل إضافية وثانوية:

إذن . . في الإسلام أربعة عوامل تشترك في التغيير، وإيجاد التحولات الاجتماعية وهي: (الشخصية، السنّة[١]، الصدفة والناس).

فالسنة ـ كما يُستنبط من القرآن بهذا المعنى ـ هي أن المجتمع يسير على أساس ثابت، وبتعبير القرآن؛ يسير على سبيل معين وعنده مسلك ومنهج خاص. فالمجتمعات تملك في أساسها قوانين جبرية وحتمية لا تتغير، إذ المجتمع يشبه الكائن الحي . . مثل الجسم الذي تحكمه قوانين طبيعية وعلمية وجبرية لا تتغير.

لهذا فإن كل التحولات والتغييرات الاجتماعية تتم على أساس قوانين جبرية، وسنن لا تتغير، هي التي تشكل مسيرة المجتمع.

من هنا نجد أن الإسلام يقترب قليلاً من الجبرية التاريخية والاجتماعية، لكن الإسلام يقول شيئاً آخر يعتبر تعديلاً في قانون الجبرية، وهو أن المجتمع الإنساني ـ أي الناس ـ في نظر الإسلام مسؤولون، وكلُّ فرد من أفراد المجتمع مسؤول عن تعيين مصيره: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) أي القانون التاريخي.

يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ وقوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ كل هذه بمعنى المسؤولية الفردية والاجتماعية.

فعلى هذا، فإن الفرد والمجتمع الإنساني كلاهما مسؤولان عن أعمالهما، وهما مسؤولان أمام الله سبحانه، يعني أن كلاً منهما يصنع مصيره بيده.

في علم الاجتماع يوجد عاملان؛ أحدهما يؤكد مسؤولية وحرية الإنسان في تغيير مجتمعه وتطويره. والآخر يشير إلى عامل القوانين الجبرية والقطعية والعلمية الخارجة عن اختيار الإنسان، وهي التي تسيّر حياة المجتمع على أساس ثابت لا يتغير.

وهذان العاملان ـ حسب الظاهر ـ متناقضان في نظر علماء الاجتماع خلافاً لنظرة القرآن إلى هذين القطبين. فهو ينظر إلى أن المجتمع له قوانين جبرية وقطعية لا تتغير، والإنسان باعتباره فرداً من أفراد الناس عنده مسؤولية تجاه المجتمع في تغييره وتطويره، فهما ليسا غير متناقضين فحسب. بل ويكمِّل أحدهما الآخر. وهكذا في الطبيعة، فالمهندس الزراعي مسؤول عن تأبير وتثمير الأشجار وتنمية النباتات، مسؤول عن استخراج أحسن الثمار من هذه الأشجار، كما أنه مسؤول عن سقي ورعي وتزيين هذه

الأشجار. لهذا فإن المهندس الزراعي هنا يملك كامل الاختيار، وبالنتيجة فهو مسؤول. ولكن من ناحية ثانية نعرف جيداً بأن هناك قوانين في علم النباتات يتوقف عليها تطوّر الثمار والنباتات، لأنها قوانين ثابتة وجبرية لا تتغير. فعلى هذا الأساس يتمكن الإنسان ـ بالتوسع في علمه واطلاعه ـ أن يستخدم القوانين الموجودة والثابتة في النبات بشكل أحسن وأجدى. فالمهندس الزراعي لا يتمكن أن يضع قانوناً جديداً في علم النبات، أو يبطل قانوناً ثابتاً من قوانينه، بل القوانين حاكمة في الطبيعة الحاكمة عليه أيضاً. ولا يقدر أن يغيرها، ولكنه يتمكن أن يستخدم تلك القوانين بطريقة علمية ويستعملها ـ بدل أن يغيرها ـ وبواسطة كيفية الاستفادة من هذه القوانين نفسها يستطيع أن يحول الثمار الرديئة والمتوسطة إلى جيدة وممتازة.

ومسؤولية الإنسان في المجتمع هي بهذا الشكل أيضاً، يعني أن المجتمع مثل المزرعة والبستان قائم على أساس السنن الإلهية وينمو ويتكامل. والإنسان مسؤول في هذا المجتمع، ولا يتمكن أن يتخلص من المسؤولية معتمداً على الجبرية

(١) نسبة إلى الشاعر والفيلسوف الإيراني المعروف؛ عمر الخيّام وما اشتهر به من عباراته الجبرية في رباعياته.

الخيامية[١] أو الحتمية التاريخية وما إلى ذلك، ولا يقدر أن يبعد نفسه عن المسؤولية تجاه المجتمع ومصيره. فالقرآن الكريم في نفس الوقت الذي يعترف فيه بأن المجتمع يسير وفق قوانين ثابتة لا تتغير، فإنه لم ينف مسؤولية الإنسان في هذا المجتمع، فالإنسان في نظر الإسلام مسؤول عن أن يعرف تلك القوانين الاجتماعية وأن يسخرها لصالح تكامل المجتمع، ولكن بأية وسيلة؟ الجواب: **بعلمه**.

لماذا يكون المهندس الزراعي أكثر مسؤولية في تنمية مزرعة ما، والقدرة على الاستفادة والانتفاع منها؟ لأن عنده علماً أكثر بقوانين الزراعة والنبات، وبالنتيجة عنده حرية أكثر في تغيير مصير الأشجار والنباتات. وكذلك الإنسان فهو بمقدار ما عنده من المعرفة بالقوانين الاجتماعية والسنن التي تحكم حياة المجتمع، يكون مسؤولاً وذا حرية أكثر في تغيير مصير المجتمع وتطويره.

فالدين الإسلامي كمدرسة علمية في علم الاجتماع يعتقد بأن تطور المجتمع لا يتوقف على أساس الصدفة فقط. لأن المجتمع كائن حيّ له قوانين ثابتة لا تتغير. والإنسان له الاختيار والحرية، وبواسطتهما، وبالتدخل في تلك السنن والقوانين والعلم بها وتصريفها، يتمكن أن يؤسس مصيراً

أفضل للفرد والمجتمع، ويرسم طريقاً أحسن لسعادته. من هنا تتأكد مسؤولية الإنسان، ويتولد الاعتقاد بأن المجتمع مثل كائن حي يعيش على أساس قوانين علمية ثابتة.

وربما كان من معاني الحديث القائل **(لا جبر ولا تفويض بل أمر بين الأمرين)** الذي صدر حول مسألة الجبر والاختيار، هو هذا المعنى من وجهة نظر علم الاجتماع.

الإرادة والقوانين الثابتة

فمن ناحية وجود الإنسان، يعني الإرادة والاختيار، ومن ناحية ثانية، وجود المجتمع، يعني القوانين الثابتة. وبتعبير القرآن: «السنة» التي لن تجد لها تحويلاً، والإنسان هو المسؤول المباشر عن حياته الفردية والاجتماعية، والجمع بينهما هو الأمر بين الأمرين. فعلى هذا كون الإنسان؛ حر في عمله واختياره، ومجبر في ممارسة هذه الحرية، عليه أن يتبع القوانين الموجودة في الطبيعة.

حتى عامل «الشخصية» في الإسلام، ليس عاملاً فعالاً هو الآخر، فحتى الأنبياء عليهم السلام لا يأتون بقوانين جديدة لحياة المجتمع، لأن فضل الأنبياء ـ بغض النظر عن درجاتهم في النبوة ـ على سائر المفكرين والمصلحين هو أنهم أعرف بسنن الله الحاكمة في العالم والطبيعة. وعلى هذا الأساس فإنهم

كانوا أقدر على الاستفادة من الحرية الإنسانية في تحقيق أهدافهم الاجتماعية. وهذه حقيقة أبرزها التاريخ جيداً، وهو أن الأنبياء كانوا أكثر نجاحاً وموفقية من سائر المصلحين. فالمصلحون يأتون ويطرحون أحسن البرامج، ويرفعون الشعارات الإنسانية في كتبهم ومقالاتهم، لكنهم لم يتمكنوا أن يغيروا مجتمعاً أو يؤسسوا مدنيةً. بينما الأنبياء صنعوا حضارات ومجتمعات وغيروا التاريخ، ليس لأنهم وضعوا قوانين جديدة مقابل القوانين الإلهية، كما قد يقول الفاشيون وعبدة الشخصيات، وإنما بقوة النبوة والرسالة ومواهبهم الخارقة للعادة. كانوا يدركون سنة الله الموجودة في الطبيعة والمجتمع ويطبقونها. وبتحكيم إرادتهم واتّباعهم لتلك القوانين، حققوا أهدافهم ونفذوا رسالتهم في الحياة.

وهكذا عامل الصدفة، بمعناها الفلسفي، لا يمكن أن يوجد في الإسلام، لأن الله هو الذي يدبر الأمور ويتصرف في أحداث الكون مباشرة. ولذا فإن الصدفة ليس لها مبرر منطقي، فلا وجود لها في الطبيعة والمجتمع.

نعم هناك نوع من التصادف، وبمعنى خاص يمكن وجوده وتأثيره في مصير الإنسان، وهو أنه مثلاً: يظهر جنكيزخان في المغول، وحسب السنة الاجتماعية يسيطر على

الأوضاع ويتحول إلى قوة عظمى، ثم يهجم على إيران، ولكن هزيمة إيران أمامه هي نوع من المصادفة، وكان يمكن أن لا تقع مثل هذه الهزيمة. فمثل هذا النوع من المصادفات يمكن أن يقع ويؤثر في مصير بعض المجتمعات.

الخلاصة

الخلاصة أن العوامل المؤثِّرة في مصير المجتمعات هي أربعة: «العظيم أو الشخصية»، «الصدفة»، «سنة الله في خلقه»، و«الناس». وفي نظر الإسلام، إن أكثر العوامل أهمية وتأثيراً هما اثنان: «الناس» و«السنة»، لأن الناس هم أفراد المجتمع، والسنن هي القوانين العلمية الموجودة في المجتمع.

الشخصيات والعظماء في الإسلام هم أولئك الذين يدركون السنن الإلهية جيداً عن طريق الكتاب (بمعنى الكتاب الخاص في الإسلام أي: الحكمة أو الهداية)، فهؤلاء اكتشفوا تلك السنن، وهذا هو سر انتصارهم.

وأما تأثير كل عامل من هذه العوامل الأربعة في تغيير المجتمع، فهو متوقف على الوضع الذي يعيشه ذلك المجتمع، والمرحلة الفكرية والاجتماعية التي يعاصرها. ففي

المجتمعات التي يكون فيها الناس، أي أفراد المجتمع، متقدمين فكرياً ويعيشون في مرحلة راقية من الثقافة والمعرفة، فإن تأثير الشخصية أو العظيم في تلك المجتمعات يكون ضعيفاً. وأما في المجتمعات القبلية المتأخرة، فالشخصية لها تأثير أشد على المجتمع.

وهكذا ففي كل مرحلة من مراحل التخلف، أو التقدم في المجتمع، يكون لواحد من هذه العوامل الأربعة المذكورة تأثير أكثر من سائر العوامل الثلاثة. ففي الإسلام نجد أنَّ شخصية النبي محمد ﷺ كان لها أثر فعال وعظيم في تحقيق التحول والتغيير والنهضة، وإيجاد حضارة المستقبل، وتغيير مسيرة التاريخ. لماذا؟ لأن النبي محمداً عاش في منطقة جغرافية خاصة، في شبه الجزيرة العربية، حيث أن هذه المنطقة بملاحظة تمدنها شبيهة حقاً بوضعها الجغرافي. فهي شبه جزيرة، أي تشرف على الماء من ثلاثة أطراف، ولكنها مع ذلك تشكو من العطش والجفاف. وهي كذلك تجاور ثلاث مدنيات وحضارات تاريخية، فمن الشمال تجاور حضارة اليونان والروم الشرقية، ومن الشرق حضارة إيران، ومن الجنوب الشرقي حضارة الهند، ومن الشمال الشرقي الحضارة الآرامية (بني إسرائيل) والأديان اليهودية والنصرانية والزرادشتية، والحضارات الآرية والسامية والإغريقية. فكل

الحضارات والمدنيات الموجودة في زمن ظهور النبي محمد ﷺ، كانت تحيط بالجزيرة العربية، ولكن مثلما كانت الجزيرة من الناحية الجغرافية تقع على عدة بحار ولكن لا يصلها منها بخار الماء، فمن الناحية الحضارية أيضاً لم يصلها أثر من آثار هذه الحضارات المحيطة بها.

فعلى هذا الأساس يظهر النبي في ظروف كهذه، بحيث يعتبر في نظر علماء الاجتماع أكبر عامل في تغيير وتحويل التاريخ والمجتمع، وهذا العامل متوفر في شخصية الرسول الأكرم. . وفي نظر المؤرخ، يعتبر ظهور النبي أعظم حدث تاريخي في شبه الجزيرة في القرن السابع، فأذاب فيه كل ما حوله من الحضارات، وأوجد حضارة كبيرة ومجتمعاً عظيماً.

وهنا عندما يلاحظ المؤرِّخ هذه الحقبة التاريخية، أو هذه المنطقة التي كانت تعيش جدباً ثقافياً وفراغاً حضارياً، وكان أهلها يعيشون في أدنى المستويات الفكرية والاجتماعية. وعندما يتأمل في ذلك التحول الحضاري والتاريخي الكبير الذي حدث بمجيء الإسلام، ينسبه إلى شخصية النبي محمد ﷺ، لأن شخصية نبي الإسلام كان لها وضع فريد وخاص.

إنّ هناك عوامل خمسة تصنع شخصية الإنسان:

العامل الأول الذي يصوغ هيكل وأبعاد روح الإنسان هي (الأم). فالأم تربي روح الطفل بكل رقة ولطف، وبكل عاطفة، وتلقنه الدروس الأولى بطرق خاصة بها حين يكون رضيعاً.

العامل الثاني يأتي دور الأب، حيث يصوغ الأبعاد الأخرى في شخصية الطفل.

العامل الثالث الذي يصوغ الجوانب الظاهرية والسلوك البارز للإنسان، هو المدرسة.

العامل الرابع هو البيئة الاجتماعية، فكلما كانت هذه البيئة واسعة وكبيرةً كان تأثيرها على الإنسان أكثر. والإنسان الذي يعيش في الريف يكون أثر البيئة فيه أقلّ من الأثر الذي تتركه فيه البيئة في مدينة كبيرة وواسعة.

وأما العامل الخامس في تربية الإنسان فهو الثقافة العامة سواء الثقافة القومية أو العالمية.

فهذه أبعاد خمسة تشكل في مجموعها قالباً واحداً تُصَبُّ فيه روح الإنسان وتبرزه للوجود.

التربية هي عبارة عن صياغة روح الإنسان بشكل خاص، ووفق أهداف معينة، لأن الإنسان لو أهمل وترك لنمى بطريقة

قد لا تنفع للحياة أو لأهدافنا. ولذلك نضع له قوالب معينة حتى ينمو ضمنها، ويتربى كما نريد له، وكما يتطلب منه الزمان والوضع الاجتماعي.

وهكذا النبي الأكرم ﷺ

أما في حياة النبي محمد ﷺ، الذي كان له أعظم الأثر ـ باعتبار عامل الشخصية في ذلك التحول التاريخي ـ فلم يكن لأيّ عامل من هذه العوامل الخمسة المذكورة دخل وتأثير في روحه.

لقد كان مقصوداً أن لا يُفرض عليه أي قالب من القوالب الفكرية والاجتماعية، أو شكل من أشكال التربية المصطنعة ـ بتلك الصورة المعهودة في زمانه ومحيطه الذي عاش فيه ـ لأن هذا الرجل جاء ليحطم تلك القوالب المعهودة، إذ لو تربى هو ضمن واحد منها، فكيف يمكن له أن يحقق رسالته؟

فمثلاً كان يمكن أن يصبح حكيماً كبيراً، ولكن في القوالب اليونانية. أو يصبح فيلسوفاً عظيماً، ولكن في قوالب موجودة عند الفرس مثلاً. أو عالماً للرياضيات، أو شاعراً بارزاً يعبده أهل زمانه وشعراء عصره. ولكنه بعث لينمو في محيط فارغ من الثقافة والمدنية (في الأميين)، حتى لا تتأثر شخصيته بأي قالب روحي وفكري من القوالب الخمسة.

لهذا فهو منذ أن يفتح عينيه يفقد أباه، وحتى لو كانت عنده أم، فاليد التي تريد حفظه بعيداً عن كل قالب يقولبه، تأخذه ـ مع وجود الأم ـ إلى الصحراء البادية. فقد كانت العادة جارية، عند العرب في ذلك الزمن، أن يرسلوا أولادهم إلى البادية لقضاء فترة الرضاعة، ولحولين كاملين. وبعدئذ كانوا يعيدونهم إلى المدينة ليتربوا في أحضان الأمهات.

ولكن محمداً ـ خلافاً للسنة المتّبعة ـ بعد أن أنهى فترة الرضاعة وحمل إلى مكة، عاد مرة ثانية إلى البادية حتى الخامسة من عمره، وبعد مدة ـ أي في السنة السادسة ـ توفيت أمه. إذاً لم يَرَ أمّه وأباه. وهذه التدابير الدقيقة المليئة بالحكمة التي رافقت طفولته أوجبت عليه أن يحطم كل القوالب اليونانية والشرقية والغربية واليهودية والمسيحية والزرادشتية، ويصنع قالباً جديداً. ولذلك نراه وقد عاش مصوناً من كل القوالب الموجودة، وبقي بعيداً عن التأثر بها، لتصوغ شخصيته يد الغيب نقياً طاهراً كما قال: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**».

فنلاحظ أنه لم يعش في مكة، ولم يخالط أهلها كثيراً حتى يتأثر بالمحيط الاجتماعي، بل حتى بعد اجتياز مرحلة الصبا ودخول مرحلة الشباب ـ وبطريقة من الطرق وهي التزام حرفة الرعي ـ تجذبه تلك اليد المدبرة إلى البادية مرة أخرى،

ليعيش بعيداً في شبابه عن البلد والبيئة الاجتماعية، فلا يتأثر بقوالبها المعهودة، ولا تؤثر شوائبها على روحه النقية. وفي سبيل أن لا تؤثر فيه روح العصر الذي عاش فيه، فإنه يولد في مجتمع لا يملك ثقافة عامة ومدنية، وهو أيضاً أمّي ـ أي لا يعهد القراءة والكتابة ـ حتى لا يتأثر بقالب الدراسة والمدرسة.

نحن نلاحظ أن أكبر شيء نالته هذه الشخصية التي تريد أن تستقبل أعظم رسالة ومهمة، هو حرمانها من كل الأفكار والثقافات والقوالب الفكرية والاجتماعية السائدة في زمانها، حتى يكون الرجل المعد لإطفاء بيوت النار المعبودة من دون الله، وإغلاق الأكاديميات الرومانية وفتح **(المسجد)** في مقابلها، والرجل الذي عليه أن يحطم كل القوالب العنصرية والقومية والإقليمية الضيقة. . ويكون بعيداً عن كل قالب من هذه القوالب البالية. لذلك نجد أن أباه سُلب منه بموته وهو جنين في بطن أمه، حتى لا يترك على شخصيته أي أثر أو بعدٍ معينٍ، كما أنه يبقى بعيداً عن حضن أمه، حتى لا تَتْرُك عواطف الأمومة وحنانها ودلالها على روحٍ يجب أن تكون مُشْبَعَة بالصلابة والقوة، بدل الرقة والنعومة والدلال. ثم يولد ويعيش في شبه الجزيرة العربية، وهي منطقة جافة أمّية، حتى لا تعلق بهذه الروح الكبيرة أية شائبة من شوائب الثقافات

والمدنيات والأديان السائدة.

لماذا؟

لأن روحاً عليها أن تتحمل أعظم مسؤولية، وتحقق رسالة غير عادية يلزم أن لا تتقولب بأي قالب عادي، ولا تتشكل بأي شكل من الأشكال المتعارفة.

ولكنّ الحرمان هذا، ولا سيّما بالنسبة لإنسان يقع على عاتقه أكبر دور في أكبر حَدَثٍ في التاريخ، لا يعتبر حرماناً. **إنه أكبر منالاً يناله هو والبشرية جمعاء.**

والحمد لله رب العالمين.

الفهرس